«لُعب حيّ البيّاض» لحسن داوود

كمن يصغي الى صوت العشب ناميا ببطء

شذا شرف الدين

حين أقرأ كتب حسن داوود، أحسب لا بد أن الكاتب يظن بأن معدّل حياة الإنسان هو ثلاث مائة سنة وليس اثنتين وسبعين كما هو معروف. فالبطء الذي في إيقاع الكتاب يناسب بطء جسم ينبض القلب فيه مرة كلّ نصف دقيقة وليس مرة في الثانية. أقرأ وأحسب أن للسطر الواحد عمراً يفرض عليّ أن أعيشه ثانية بثانية. وإذا حسبنا معدّل السطور التي علينا قراءتها في كتابه الأخير «لُعب حيّ البيّاض»، والذي هو بحدود ٤٧٠٠ سطر، وإذا افترضنا أن زمن السطر هو نصف دقيقة، يلزمنا، إذا قسّمنا ٤٧٠٠ على نصف دقيقة، ٢٣٥٠ دقيقة لقراءة الكتاب أي تسع وثلاثين ساعة ونصف.

عادة، أنا سريعة بالقراءة وأستطيع أن أقرأ عدّة كتب في آن واحد، يعني أن أقرأ كتاباً وأنا في قاعة انتظار مثلاً، وثانياً إذا كنت أعمل على موضوع معيّن يستدعي قراءة مختصة، ثم كتاباً ثالثاً مساءً قبل النوم لأنهض في الصباح التالي وأباشر بقراءة كتاب رابع بدأته قبل أيام. أما مع كتب حسن داوود فلا مجال لذلك. أبدأ بقراءة «لُعب حيّ البيّاض»، وحين أكون في مكان يُفترض خلاله تعبئة الوقت الضائع بالقراءة، أجدني لا أستطيع أن أتابع فيه. أكتشف بأني لا أستطيع أن أقرأه هكذا، ببساطة بين كتاب وآخر، أو بين نشاط وآخر أو فيما أنا أتنقل من مكان إلى مكان. كما أنني لاحظت بأنني لا أقرأ كتب حسن داوود بنهم المتشوّق لمتابعة أحداثه، لا بل ليس لدي مشكلة إطلاقاً في وضع الكتاب جانباً لأعود إليه لاحقاً كما لا يحصل لي حين أقرأ رواية لكاتب آخر. هذا إذا استثنينا كتاب ماكياج خفيف لهذه الليلة الذي قرأته «بسرعة المشاهدة»، لا القراءة، لذلك لم يبقَ الكثير منه عالقاً في ذاكرتي.

كما لاحظت بأنه حين أقرأ لُعب حيّ البيّاض ليس لديّ أي رغبة بقراءة موازية. كان هو الكتاب الوحيد الذي استمريت بقراءته ببطء من لديه كل الوقت الذي في الكون. ولم يكن مطلوباً مني سوى الدخول في إيقاع الكتاب حتى يخيّل إليّ بأنني فعلاً من فصيلة أخرى، فصيلة الذين يحتاجون إلى ساعة كاملة ليعيشوا لحظة واحدة.

حتى أني قلت لصديقتي حين سألتني رأيي بكتاب أيام زائدة بأن عليها قبل أن تقرأه أن تقوم بتمارين اليوغا التي هي تمارسها. وهي انفجرت بالضحك كونها ظنّت بأنها طريقة لطيفة للقول بأن عليها أولاً أن تهدئ أعصابها قبل أن تبدأ القراءة لأن بطئه لا بدّ سيعصّبها. فأنا أجزم بأن هذه صفة حسن داوود الأولى حين يأتي الكلام عن كتبه. لكنني أوضحت لها بأنني فعلاً قصدت أن تهدئ أعصابها ولكن ليس كي تتحمّل بطئه بل كي تستمتع به، وإن اليوغا قد تساعدها على دوزنة نبضها حسب إيقاع الكتاب، متحاشية بذلك النشاز الذي قد يحدث إذا ما فعلت.

مع لُعب حيّ البيّاض علي أن أخصصَ وقتاً محدّداً لمتابعة القراءة، يكون هذا موعدي مع صبحيّة (بطلة الرواية) التي تركتها حين أتى المصوّر ليصوّر عائلتها، كون هذا المقطع أعجبني جداً فقلت علي أن أقرأه ببطء بالغ. أترك الكتاب جانباً كما كنا نفعل ونحن صغار مع لوح الشوكولا الذي نأكله على دفعات كي نطوّل الزمان الذي نذوّب فيه القطعة تحت ألسنتنا. أخالها، هي صبحيّة، الرقيقة القانعة والتي لم تفرض شيئاً على أحد في حياتها، والتي «خلقها الله من دون مخلب ولا إبرة ...» تفرض عليّ أن أحدّد موعداً لقراءتها. ليس هذا فقط بل أيضاً أن أعدّ نفسي لذلك. يعني أن أقرر قبل أن أمسك الكتاب، بأن أنسى كلّ المسائل التي لا علاقة لها هي فيها. وهي تطلب ذلك بتحفظ شديد، حرصاً منها على عدم إزعاجي. تماماً كما تفعل مع أولادها الذين لا تبوح لهم بقدر الوجع الذي يحدثه لها «الباطون الذي في فخذها» خوفاً من تحميلهم همّها.

أستلطفها وهي طفلة تخيّط اللعب، تقلّد نساء الحيّ وتضحكهن لكنها لا تعرف أن تدافع عن نفسها من تسلّط رفيقتها هتاف. ثم أتصورها جارتي أراقبها من شباك غرفتي وهي في بيت أهل زوجها «الأسود»، وأكره رباب الضخمة تعاطفاً معها. ثم أحبّها حين تنتقل إلى بيتها وتقرر أنها «تريد الآن أن تترتّب وأن ترتّب أولادها». وتصبح صبحيّة صديقتي رغم السنين الفارقة بيني وبينها. وحين تكبر وتحاول إقناع ابنها بعدم القيام بالعملية الجراحية كونها ما عادت تحتمل الأوجاع، أتذكر خالتي التي كانت تطلب منّا وهي في العناية الفائقة أن ندعها وشأنها وبأنه لا يحق لأحد سواها تقرير مصيرها، وأفكر كم هي مختلفة صبحيّة...

أمّا المتعة الأكبر في قراءة صبحيّة، فهي حين تشاطرني نظرتها إلى الأشياء. حين تقول مثلاً بأن «الأفلام كانت أحسن بكثير ممّا هي الآن». ولماذا؟ لأن «كلّ شيء فيها كان جيّداً ومرتبّاً. ليس فقط الثياب التي ترتديها الممثّلات، لكن أيضاً قصّات شعورهنّ وتخطيطات حواجبهنّ وكذلك طريقة كلامهنّ حين يتكلّمن. وكان من يصنعون الأفلام يقولون للممثلات أن لا يتحرّكن كثيراً لأن ذلك لا يلائم موديلات الفساتين ولا قماشها...» (ص ٦١) وتروح صبحيّة التي تعلّمت «الخياطة الحقيقيّة من السينما» تركّز نظرها لا إلى الممثلة بل إلى «قُطَب الأكتاف وكيف هي أطراف القبّة...». فاتنة هي صبحيّة باختصارها محاسن عصرها ذاك، يتنبّه مخرجي أفلامه إلى أن موديل الفستان وقماشه هما أهم من حركة الممثلة. أو حين تصرّح عن رأيها بأن «الأجسام الصغيرة أجمل من الأجسام الكبيرة» وبأن « في جسم كل امرأة طويلة منطقة لا بدّ زائدة» وبأنها تعلم ذلك من الخياطة. «حيث الطول إمّا يأتي من الساقين وحدهما أو من ارتفاع البطن مسافة زائدة نحو الصدر» (ص ٦٣). ثم تحدّد: بأنه ما يعيب طول الجسم «ليس فقط ارتفاع القدمين ولا المسافة الزائدة بين الخاصرتين والصدر، بل الضخامة التي فيه» (ص ٦٤). هي الضخامة، في كلّ وجوهها، ما لم تفهمه صبحيّة. فهي تصف أهل زوجها بالوزن والكمية. لا بطبائعهم ولا بالكلام الذي يقولونه بل بأجسامهم وكأنها تراهم مجسّمات لا أفراداً. ولمّا لا تجد كلاماً أدقّ لوصفهم تروح تسمّيهم «الأسود» أو «النمور». وكأنها تفكّر كيف ممكن لامرئ أن يعيش داخل هذه الكميّة من الأجسام. فأتخيلها كيف هي محاطة باللُعب من جهة وبالأسود والنمور من جهة أخرى، محاولة عبثاً القول للعالم حولها بأن الأشياء الصغيرة «أجمل من الأشياء الكبيرة» (ص ١٣٩).

***

حين سألني زوجي إن كنت انتهيت من لُعب حيّ البيّاض كونه يريد قراءته في المترو، قلت له أني انتهيت منه لكنني لا أنصحه بأخذه معه كون هذا الكتاب يحتاج إلى الاستماع إليه تماماً كما يستمع الواحد إلى ألفرد شنيتكه. بمقدورك طبعاً أن تستمع إلى موسيقى ألفرد شنيتكه («مُنَوكَس لمنَّة») أو آرفو برت («مفدّء») في المترو، لكنك لن تستمتع بها. هذا أكيد. فلُعب حيّ البيّاض هي كما الموسيقى الكلاسيكية الحديثة، تفرض عليك سماعها رُغم أن فرضها هذا لا علاقة له بكمية التشويق التي فيها، بل هي المادة وحدها أو إيقاعها المليء بأشياء لا يستطيع فكر امرئ، يدقّ قلبه بين ٦٠ و٨٠ مرة في الدقيقة، أن يستوعبها إلا إذا عدّل نفَسَه على أساسها. هي تحتاج إلى وقت كثير كي تنتهي، تماماً كما النبتة التي تحتاج إلى وقت كي تطلع.

هناك مثَل يقول عن الذي لا يفعل شيئاً «إنه يصغي إلى نموّ العشب». أنا أرى أن في الإصغاء إلى نمو العشب عملاً خالصاً ونشاطاً بحدّ ذاته، فلا أدري لماذا يعتبرون الذي يصغي إلى نموّ العشب شخصاً كسولاً، على كلّ، أنا هكذا أشعر حين أقرأ كتب حسن داوود، كأني واضعة أذني على الأرض وأصغي إلى نموّ العشب... إنها متعة أرغب دائماً في أن أبطئها لكي يطول زمنها.

● لُعب حيّ البيّاض: دار الآداب ٢٠٠٥.
● أيام زائدة: دار الجديد ١٩٩٠.
● ماكياج خفيف لهذه الليلة: دار رياض الريس ٢٠٠٣.

كتابة التاريخ استناداً إلى مرويات أهله المتنازعين

أوروبا وصراع الطوائف اللبنانية في القرن التاسع عشر

مسعود ضاهر

شددت بعض الدراسات التاريخية على «فرادة» التركيبة الطوائفية اللبنانية التي تميزبها جبل لبنان عن سائر مناطق الجوار. لكن تلك «الفرادة» لم تعمل لصالح اللبنانيين الا في زمن الاستقرار. وغالبا ما كانت تنقلب الى نزاعات دموية بين التجمعات الطائفية، وتستدرج تدخل قوى اقليمية ودولية كانت تتحين الفرص للحصول على مكاسب عدة من السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر، ومن الدول الغربية في القرن العشرين.

في هذا السياق، قدم كتاب منير اسماعيل الجديد «لبنان في السياسات الأوروبية ١٨٤٠ - ١٨٦١»، اضافة نوعية حملت الكثير من سمات الجدة. فقد انطلق الباحث من رؤية شمولية دقيقة لطوائف جبل لبنان التي تتعايش على ارض واحدة. نتيجة لذلك «تعايش التدين العميق جنبا الى جنب مع التعصب البغيض، وتداخلت المحبة مع البغضاء، والثراء مع البؤس. وتنازعت سكان الجبل عقلية محاطة مع مقابل تقدمية عصرية». وكانت المحصلة العامة ان الفوارق الكثيرة بين التجمعات الطائفية اللبنانية تعمدت بالنار والدم على مدى قرون. ومع ان الشعب اللبناني هو من اكثر شعوب العالم حبا للمهاجرة، فان ابناءه كانوا من اكثر الشعوب تعلقا بأرضهم الصخرية الوعرة. وقد اغدقوا على اجدادهم ألقاب الحرية، والعنفوان، والتمرد، والصلابة، وضخموا تلك السمات في اغانيهم، وتراثهم الفولكلوري، وآدابهم، أما كتابتهم لتاريخهم، فغالباً ما طغى فيها الانفعال على الافعال، ومرويات الطوائف على مصادر الارشيف بكامل وثائقه العثمانية، والفرنسية، والانكليزية، والروسية، وغيرها.

كانت الدولة اللبنانية تكتفي بالتفرج على سرد ذلك التراث شبه الاسطوري عن احداث التاريخ الذي لم يكتب الا نادرا على اسس من الدقة والموضوعية. ولم تبادر الدولة اللبنانية، في زمن السلم كما في زمن الحرب، الى اعداد كتب مدرسية لتاريخ موضوعي يتعلمه طلبة المدارس لكي يكبح توجهات الطوائفي المتنافرة والمتناحرة. ولم يؤسس مؤرخو لبنان لقيام مدرسة علمية رصينة تعتني بكتابة تاريخهم انطلاقا من وثائقه الاصلية، ووفق منهجية علمية تعتمد العقلانية. فهناك دول اخرى شهدت احداثا دموية مشابهة لما مرت فيه التجمعات السكانية في لبنان، وفي طليعتها سويسرا، والتي قدمت نموذجا بالغ الاهمية في كيفية التأريخ للنزاعات الاهلية ذات الطابع الدموي.

لقد طغى التزييف الطوائفي على كتابة تاريخ النزاعات بين الطوائف اللبنانية بحيث همشت الكتابة التاريخية الرصينة واحتلت حيزا ضيقا للغاية قبل اندلاع الحرب الاهلية. ثم زادت رقعتها تقلصا في زمن الحرب الاهلية لعام ١٩٧٥-١٩٨٩. وما زالت تتقلص بسب سيطرة ذهنية الميليشيات الطائفية والسياسية على الدولة اللبنانية ومؤسساتها منذ اتفاق الطائف لعام ١٩٨٩. وتقاعست الدولة اللبنانية حتى الان عن اعداد كتاب علمي لتاريخ لبنان يدرس في جميع المدارس اللبنانية.

اعتبر منير اسماعيل بحق ان عام ١٨٤٠ شكل منعطفا مصيريا في تاريخ المقاطعات التي توحدت لاحقا في دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠. فقد شهدت تلك الحقبة احداثا دموية عرفت باسم «عهد الفتن» التي استمرت لاكثر من عقدين من الزمن. وأقيم نظام القائمقاميتين، واحدة للنصارى وأخرى للدروز. وشهدت انتفاضة فلاحي كسروان لعام ١٨٥٨ والتي دامت قرابة الثالث سنوات. وبعد صدامات دموية في عام ١٨٦٠، والتي تجاوزت حدود جبل لبنان الى دمشق ومناطق اخرى من بلاد الشام، تدخلت بعض الدول الاوروبية، خاصة فرنسا، بشكل مباشر على المستويين السياسي والعسكري. وتوجت الضغوط الاوروبية على السلطنة العثمانية بالاعلان عن النظام الاساسي لمتصرفية جبل لبنان عام ١٨٦١.

وعاش سكان جبل لبنان فترة استقرار اغدقوا عليها الكثير من النعوت الايجابية في ما يتعلق بالتعايش بينهم.

تضمن كتاب منير اسماعيل مادة وثائقية غنية عن مرحلة الفوضى او الفتن الطائفية. وهي وثائق اساسية نشر بعضها سابقا بصورة كاملة او مجتزأة، وبعضها ينشر للمرة الأولى، وبنصوصه الاصلية، العثمانية منها أو الفرنسية، مع ترجمة دقيقة لها باللغة العربية. وبالاضافة الى الغنى الوثائقي، نشر الباحث فصولا تحليلية سلطت اضواء منهجية تساعد على قراءة تلك الوثائق من خلال خبرة مؤرخ مختص بتلك المرحلة من تاريخ جبل لبنان، ولديه اطلاع واسع على وثائقها، ومصادرها المتنوعة. فخلال عمله الاكاديمي الطويل، اشرف الدكتور منير اسماعيل على عدد كبير من الاطروحات الاكاديمية التي تناولت بالتفصيل تاريخ تلك الحقبة، من مختلف جوانبه.

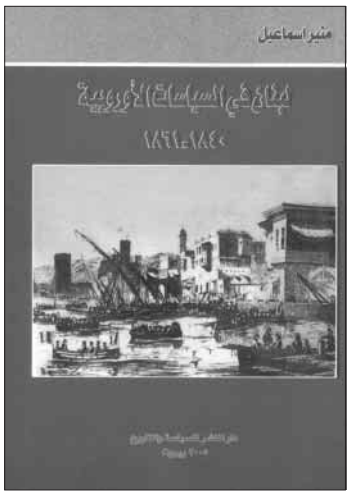

بعد تمهيد مفصل طرح فيه منهجيته العلمية في معالجة تلك الحقبة المتفجرة من تاريخ جبل لبنان، ضم الكتاب ستة فصول جاءت على التوالي: تقسيم الجبل الى قائمقاميتين، والفتنة الطائفية عام ١٨٦٠، ومشروع دوفرين لتنظيم اوضاع لبنان وسوريا، ومشروع تقسيم لبنان الى ثلاث قائمقاميات، ومسألة «الحكم الاهلي» في وضع نظام لبنان الاساسي، واعلان النظام الاساسي لمتصرفية جبل لبنان في ٩ حزيران ١٨٦١. كما تضمن ملاحق لما اسماه الامتيازات الاجنبية في اصولها، وواقعها، وتداعياتها، ومنها الامتيازات الاجنبية بنصه المترجم الى العربية، ونظام القائمقاميتين بنصه التركي (الأصح العثماني) وترجمته الفرنسية والعربية، ونظام المتصرفية بنصه العثماني والفرنسي. هذا بالاضافة الى صور لشخصيات تاريخية لعبت دوراً بارزاً في تلك الحقبة، ورسائل متبادلة، وعرائض، وخرائط تفصيلية أو شمولية وغيرها.

فالكتاب يقدم مادة وثائقية يمكن الاستفادة منها في كثير من الدراسات العلمية حول تاريخ تلك الحقبة. الا ان دلالة المصطلحات الجغرافية والسياسية المستخدمة، ومنها مصطلحا لبنان، وسوريا، بحاجة الى تدقيق تاريخي. كما ان نص «الامتيازات الاجنبية» غير مثبت في الوثائق العثمانية، وسبق ان نشرت دراسات علمية رصينة شككت بوجوده اصلا خارج دائرة الوثائق الفرنسية، ودون اي توقيع عليه، وقد اعتبرت بعض الدراسات التاريخية ان الامتيازات كانت مجرد تنازل طوعي من سلطان عثماني قوي هو سليمان القانوني الى ملك فرنسا الذي كان يواجه متاعب كبيرة لتثبيت دعائم حكمه.

لعل ابرز اضافات منير اسماعيل المنهجية في هذا الكتاب قوله بأن العثمانيين «عادوا مزهوين الي بلاد الشام بنصر لم يسهموا فيه بنصيب كبير، حاملين معهم الاضطراب، وفوضى الادارة العثمانية في عهدها الاخير». وما ان ازالوا حكم الامارة الشهابية، حتى واجهوا الكثير من الفتن الداخلية التي لم تتوقف طوال سنوات تفردهم بحكم الجبل خلال اعوام ١٨٤١ - ١٨٤٤. وكانت للكاتب اضافة مهمة ايضا تساعد على فهم نهاية تلك الحقبة الدموية من تاريخ جبل لبنان. «فقد كانت فتنة ١٩٦٠ اكثرها (تلك الفتن) قسوة ومرارة، حيث تبارى فيها الاطراف المتحاربون، المسيحيون والمسلمون على حد سواء، في استعمال اعنف اساليب القتال». وكانت النتيجة ان تلك الفتن حفرت عميقا في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر. فكانت تتوقف بعض الاحيان لتعود فتنفجر بصورة اكثر دموية. وكانت آخرها الحرب الاهلية لعام ١٩٧٥ والتي استمرت خمسة عشر عاما. وتحت تأثير تلك الفتن، استمر العامل السلبي للتاريخ عبئاً يتوارثه اللبنانيون جيلا بعد جيل منذ القرن التاسع عشر. «وما زال لبنان، كما يقول الباحث، يتلمس طريقه، ويبحث عن شخصيته، ويسأل عن هويته».

لقد مضى اكثر من قرن ونصف القرن على بداية الانفجار الطوائفي لعام ١٨٤٠ دون ان ينعم اللبنانيون بأي شعور حقيقي بالاستقرار الثابت والدائم». وبقيت تلك الحقبة حقل اختبار متزايد لعدد كبير من المؤرخين وعلماء الاجتماع في لبنان دون ان يتوصلوا الى معرفة دقيقة بأسبابها، والنتائج التي ترتبت عليها، والدروس المستفادة التي تمنع تكرارها. في هذا المجال، هناك شبه اجماع على اعتبار نظام القائمقاميتين بمثابة الركيزة الأساسية التي شكلت منطلقا دائما لعدم الاستقرار في جبل لبنان.

وقد حلل الباحث تلك الظاهرة بدقة حين قالك «ان اخطر قرار في تاريخ لبنان السياسي هو قرار تقسيمه الى قائمقاميتين: الأولى للنصارى يتولاها قائمقام مارونى، والثانية للدروز وعلى رأسها قائمقام درزي، وتخضع القائمقاميتان لسلطة والي صيدا». لكن قرار تقسيم اللبنانيين لم يورثهم سوى الدمار والخراب والتحضير لحرب طائفية مدمرة في حقبات لاحقة. كما ان قرار الاعلان عن متصرفية جبل لبنان قد اوقف الحرب الاهلية لعقود طويلة دون ان يزيل الاسباب الدافعة لتجديدها ولو بعد مائة عام او اكثر.

ورغم الايجابيات الكثيرة التي رافقت تلك المرحلة، وما رافقها من ترداد القول المعروف «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان»، فان نظام ١٨٦١ المتصرفية وما حمله من ترسيخ للبنى الطائفية في السياسة، والادارة، والتعليم، وغيرها، لم يقدم حلا شافيا للمسألة اللبنانية. «ولم يورث اللبنانيين، كما يقول الباحث، سوى الأسى والمرارة وهجرة سكان الجبل الكثيفة نحو مصر، واوستراليا، وافريقيا وبلدان ما وراء الاطلسي».

مع ذلك، فاستمرار مأساة لبنان واللبنانيين تعود، بجانب اساسي منها، الى ان بعض ساسة لبنان من ذوي الاتجاهات الطائفية يطالبون بالعودة الى صيغة التوازنات الطائفية التي شهدها جبل لبنان. ومنهم من ترحم على حكم الامارتين المعنية والشهابية رغم ما رافقه من صراعات سياسية دموية، لكنها بقيت بعيدة عن النزاعات الطائفية المدمرة. وغمز اسماعيل من قناة بعض القادة الطائفيين الذين تمسكوا بمقولة انتقال الحكم من المسلمين الى المسيحيين. فيفضل دور «التبشير» المسيحي الذي نجح في تنصير بعض زعماء الشهابيين سجل ولاول مرة في تاريخ الجبل، تسلم امير مسيحي هو الامير يوسف شهاب مقاليد الحكم فيه عام ١٧٧٠. فحقق ذلك الحدث غاية آمال رجال الاكليروس المارونى، بعد قرون عدة من الحكم الاسلامي السني، والدرزي، مع التنوخيين، والمعنيين، والشهابيين الاوائل. فعقب على تلك الظاهرة بقوله: «كان ذلك كسبا لمسيحيي لبنان، فما ان تحقق حتى غدوا يرفضون اي تنازل عنه». واستنجد بتقرير لقنصل فرنسا في بيروت الى وزير خارجيته جاء فيه: «لقد تحققت الثورة الكبرى في لبنان، فما ان اعتنق الشهابيون الكثلكة حتى رجحوا كفة الموازنة بشكل حاسم. ولا يبدو الامر مستغربا لمن يدرك الدور الذي يقوم به الدين عند شعوب الشرق».

لكن الاحتفاظ بالحكم لم يكن في متناول زعماء اللبنانيين دون مساندة من قوى اقليمية ودولية تدعم زعماء لبنان في اطار الحفاظ على مصالحها اولا. وكثيرا ما سعي ممثل دولة خارجية الى اجراء مصالحة بين اطراف الصراع في لبنان حين تقضي مصلحة بلاده ذلك، ليعود فيمنع توحيد الزعامة السياسية داخل الطائفة الواحدة في مناسبة اخرى. تلك كانت سياسة العثمانيين، والفرنسيين، والانكليز، بالاضافة الى سياسة بعض الولاة الاقوياء كالجزار وغيره. ففرنسا تدافع عن مصالحها في السلطنة بالترويج لمقولة انها حامية للكثلكة في العالم، وذلك من موقعها كأول دولة علمانية تفصل بين الدين والدولة، وبريطانيا، وهي زعيمة البروتستانتية في العالم، تحتضن طائفة الدروز الاسلامية. كما ان روسيا تحاول استمالة ارثوذكس المشرق العربي وفي البلقان، للتأثير على قرار السلطنة العثمانية التي كانت تعطي مكانة متقدمة لبطريرك الاستانة الارثوذكسي، الى جانب مفتي السلطنة العثمانية، على حساب باقي رجال الدين في السلطنة، من مسيحيين ومسلمين، فلم يتحمس ارثوذكس لبنان لقيام قائمقامية ثالثة. فولدت فكرة القائمقامية الارثوذكسية ميتة في مهدها.

ختاما، لقد حمل كتاب «لبنان في السياسات الاوروبية ١٨٤٠ - ١٨٦١»، مادة وثائقية غنية، بالاضافة الى مقولات منهجية رصينة تلقي اضواء جديدة على سياسة القوى الاوروبية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر.

● منير اسماعيل/لبنان في السياسات الاوروبية ١٨٤٠ - ١٨٦١/دار النشر للسياسة والتاريخ. بيروت ٢٠٠٥.

في الطريق إلى غابة النخيل

جبار ياسين(*)

في الطريق إلى غابة النخيل
كانت النجوم تتهاوى على الرمل كغزلان مذعورة أمام فخاخ الصيد.
البحر بعيد جداً، في الطرف الآخر من المجرّة
كما القمر الذي أكله حوتٌ على غفلة منّا.
لا تبتهجوا بسعادة غير كاملة
فبدايات القصص دائماً جميلة
بينما الأحزان تتخفى بين طيّات الفصول
كأن نقول «كانت فارسة ممشوقة القوام تتنزه ممتطية صهوة جواد في غابة بولونيا»(**)
لكن النهايات حزينة دائماً
فالموت خاتمة لكلّ القصص
حتى تلك التي لم نكتبها بعد.

هذه بلاد أنهار ومدن من الطين
لا يصلح المشي فيها في الظهيرات القاتلة
فالغبار سيد الموقف
والشمس كافرة وملحدة بالبشر
لا أمل هنا الا بسقيفة مثل سقيفة يونس
وشجرة خَرُّوع مسحورة
تنبت مع الشروق وتبلغ مداها القصي في انتصاف النهار
عسى أن تمر سفينة فتنقذ من شعاع الشمس نبياً
يصرخ بالنوتية المنهوكين على الساحل
وبالبحارة المخمورين بعرق هبهب: أن ارموني في البحر
هذه العاصفة الهوجاء تهب عليكم بإثمي
أنا الغريب على شريعة النهر الذي تصورته بحراً
متخيلاً سفاسفي حكماً
وجوعي صوماً
وعَنَتي صوفيةً مطلقة.
أنا الغريب في مشرق الشمس
أبحث عن العين الحمأة
عن جوج وماجوج في خرائب نينوى المنهوبة
لكن لا أثر لحجر كريم
لا أثر لعبارة قيلت بعد محنة
لا أثر لضرع حلوب
لا أثر هنا غير رائحة عظام الموتى
وظلال الغائبين
ترسمها الشمسُ كما يرسم الأطفال المنغوليون رسومَهم.

في الطريق إلى غابة النخيل
خُوذٌ من حديد مصفّح تشبه سلاحف طائرة
عربات همفي مزركشة وديناصورات معدنية تشخر
و جذوع نخيل محترقة تخفي مجنزرات معطوبة وقطعان ماعز
لا مرايا هناك غير صدف الرمل الخائفة من العاصفة
غير قصب تائه في صيهود ضفاف الأنهار
حيث لصوص يتلثّمون قبل إن ينقضوا على عربة عائدين
غير رمادي يخيف المسافرين
وفلّوجة تسرح على أطرافها الكلاب الضالة
للصحراء أحكامها الأزلية التي لم تغيرها كتب الله
كما للفجيعة سيرورتها
وللطيور أعشاشها التي لم تغيّر طريقة غزلها الحضارات
النخل مورف الظلال في صور الرسّامين المحليين
لكنه اليوم بلا سعف
والعدّادات لايغيرن في البكائيات غير أسماء القتلى
فالمتونُ هي ذاتها
والصدور اللاطمة هي لعراقيات يشبهن جذوع نخيل محروقة
لا أحد يذكر جنة الله
فلم يعد أحد، بعد، من هناك ليصفها في قصيدة.

***

على أرض الشمس
دم يسيح على الجدران المتآكلة
على مشبّكات المجاري
على حديد السّيارات الصدئ
على أوراق ورد الجوري
على مكنسة من جريد النخل
على لافتة سوداء تعلن وفاة سيّدة ودعوة لمأتم في حسينية
ووجوه العابرين صدفة في طريقهم إلى جحيم آخر
الناجون من المذبحة
يروون الصدف التي غيّرت طريق الذهاب أو الإياب
حيث يتخفّى ملاك طيب
هو الآخر سيموت غرقاً
جارفاً معه ذكرى الجسر الذي تهاوى بعابريه
أين الغمامة التى انقذت الرسل من لفح الشمس
أين خروعة يونس؟
أين ناقة صالح لتمضي بنا بعيداً عن المذبحة؟
هل ترانا سنمكث خلف نجمة العنكبوت دهراً آخر؟

في الطريق إلى غابة النخيل
أوقفني جندي محتلٌ وراح يبحث في عيني
عن أحزان بعيدة كانت جواز سفري
عند حدود مشرعة للجميع
تلال من الحصى كانت هناك
حيث سرب من اللقالق المهاجرة في «بكْنك» أبيض
وكنت مثل تلك المرأة المفتوحة العينين في لوحة مانْهْ
بليداً في عري غير مسبوق
أحدّق في الكثبان وشاحنات الذهب الأسود التي تعبر الحدود
والفار. ويست الذي انبثق من الطريق
لم أر غير قافلات الدفع الرباعي التي يقودها البدو
فأنكفأتُ إلى صورة الهيذبى والخيزلى والنجاة البجاوية
وانا أُردد بلغة فصحى: أين أرض العراق؟
لم يجبني أحدُ حينها بـ «ها»
فأنحنيت على اصابع يدي وبكيت
مستنجداً بالهواء اللافح للظهيرة
وبيد فرنسي مرتبك من مشهد مدينة بائرة في جمهورية عقوق
أين نسوان الحي ليزغردن لهذه الاعراس الدموية؟

هل لسيّدة الوركاء حرمة بين هذا الدخان؟
أين عيونها التي كانت من كحل خالص؟
غير هدير السيارات لم يأت من جواب
وفي الليل مرّت الأباتشي ليبتهج الأطفال بالحرية التي لم يفهمها الكبار
صفّق، صفق يا أيمن ويا يسار
أيها الطفلان صفّقا للصحون الطائرة
فالمريخ هو الأرض التي ولدتم عليها.

في الطريق إلى غابة النخيل
انكسر الضوء في البرك الآسنة في ألف حي من الاحياء الفقيرة
وفي أحلام ألف ألف من العائدين
يا أورنمو، خرسباد، فارة، النواويس
يامدنا تنام في الكتب وكنوزها في الخزانات المنهوبة:
في الهواء الطلّق تبخرالتاريخ
مابقي منه هو التوابيت التي تتنقل بين الغري والمحاويل
وعين الصخر وعين زالة وعين نوح وحلبجة والدجيل
وغماس والكلبدون والرزازة
ومئات الأسماء التي جعلت العراق أشبه بقنفذ جريح
على قارعة طريق
وليس الطريق لبغداد غير نهر من الذكريات
فالمربديون وأشباههم مازالوا يرفعون رؤسنا على أسنّة الرماح
ولا آخيل بيننا ليغضب
وتغضب معه جحافل المرميديون أمام أسوار المدينة المحاصرة
ليكتب الاعمى بيننا عشرة آلاف أرجوزة للغضب
ما زال العرابيد يحتفلون بمولد زرقاء اليمامة
وينصتون لرقّة أجفان عينيها
كما ينصت الهنود الحمر لرنين عظام أسلافهم
سوى أن الهنود يعشقون الشجر وخرير ماء النهر
مازال الطريق محض ذكريات بعيدة
مازال أهل السواد في حزنهم
مازلنا نصفق اليدين أسفين
مازلنا نخنق عَبْرَة، صامتين
أمام أيقونة طريق الآلام
سلام، سلام، سلام
بهدوء جناحي ملاك
على غابة النخيل.

(*) كاتب عراقي يعيش في فرنسا
(**) رواية «الطاعون»، لألبير كامو